

بلاغة الاختلاف بين الصيغ النحوية في المتشابهات اللفظية في الآيات القرآنية - صيغتا الفعل الماضي والفعل المضارع نموذجا -

The eloquence of the difference between the grammatical forms in the verbal similitudes in the Quranic verses _ the two forms of the past tense and the present tense as an example._

محمد شيباني *

جامعة حسية بن بوعلـي- الشلف. (الجزائر)، pr.chibani.ens@gmail.com

تاريخ الارسال 2022/01/29 تاريخ القبول 2022/08/05 تاريخ النشر 2022/12/28

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الأسرار البلاغية لاختلاف الصيغ النحوية للمتشابهات اللفظية في القرآن الكريم، وما الآليات المتبعة في إثارة صيغة على أخرى؟ وما السر الإعجازي وراء هذا الاختيار؟ وهل للسياق دور في الوظيفة التواصلية للنص القرآني؟ على أنني اخترت صيغتي الفعل الماضي والفعل المضارع نموذجا لهذه الدراسة، وتظهر أهميتها في بيان المعاني والدلالات التي تقصدها كل صيغة على حدة، وفي زوال حيرة التالـي لكتاب الله تعالى بعد معرفة مراد الله سبحانه من كلامه المقدس الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم _ البلاغة _ المتشابه اللفظي _ الصيغ النحوية.

Abstract: This study aims to reveal the rhetorical secrets of the different grammatical forms of similarities in the Holy Qur'an, and what are the mechanisms used in favoring one form over another? What is the miraculous secret behind this choice? Does context have a role in the communicative function of the Quranic text? However, I chose the past tense and present tense forms as a model for this study, and its importance appears in clarifying the meanings and connotations intended by each form separately, and in removing the confusion that follows the Book of God Almighty after knowing God's intention from His sacred words that falsehood does not come to him from before him or from behind him. , downloaded by Hakim Hamid.

Keywords: The Noble Qur'an - rhetoric - morphological analogies - grammatical formulas.

مقدمة:

إنَّ لكلَّ من الفعل الوارد في الزمن الماضي، والفعل الوارد في الزمن المستقبل في القرآن الكريم بصفة خاصّة، وفي لغة العرب على سبيل العموم دلالة من حيث المعنى، ومن حيث التركيب على حدّ سواء، وفق السياق الذي يتضمنه والمقام الذي يقتضيه، فالإتيان بأحدهما دون الآخر في الجملة ليس اعتباطاً. إنّما لإفادة معنى جليل لا يمكن تحصيله بإيراد غيره مكانه. وفي هذا السياق يقول ابن الأثير: «اعلم أنّ الفعل المستقبل إذا أُتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل

* المؤلف المرسل

الماضي، وذلك لأنّ الفعل المستقبل يوضح الحالة التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة، حتّى كأنّ السامع يشاهدها . وليس كذلك الفعل الماضي⁽¹⁾.

على أنّ الفعل الماضي له مزيّته هو الآخر في إفادة المعاني الجليّة التي ما كان لها أن تستفاد من الفعل المضارع. ولاسيما إيراد أحدهما في مكان الآخر، يقول ابن الأثير: «وأما الاخبار بالفعل الماضي عن المستقبل فهو عكس ما تقدّم ذكره، وفائدته أنّ الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد، كان ذلك أبلغ وأؤكد في تحقيق الفعل وإيجاده، لأنّ الفعل الماضي يعطي من المعنى أنّه قد كان ووُجد؛ وإنّما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة، التي يستعظم وجودها»⁽²⁾، ثمّ بيّن الفرق المعنوي بين الاستعمالين بقوله: «والفرق بينه وبين الاخبار بالفعل المستقبل عن الماضي أنّ الغرض بذلك تبيين هيئة الفعل، واستحضار صورته، ليكون السامع كأنّه يشاهدها؛ والغرض بهذا هو الدلالة عن إيجاد الفعل الذي لم يوجد بعد»⁽³⁾.

ومن أنعم النظر في كلام العليم الخبير، يجده حافلاً بهذه الاستعمالات اللغوية والبلاغية الراقية؛ والتي من خلالها بلّغ القمّة في الإعجاز، والروعة في البيان.

1- الاختلاف في إيراد زمن الفعل ماضياً ومضارعاً:

جاء في القرآن الحكيم من هذا الكثير، فنجد آيات جاءت متشابهة تماماً ولا اختلاف بينهما سوى في إيراد الفعل، فبعضها يورده في الزمن الماضي وغيرها في الزمن المستقبل؛ من ذلك:

...

1- قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

[الأنعام: ٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخَذَهُمْ يَتَّخِذُوهُ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخَذَهُمْ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِمْ يَتَّقُونَ اللَّهَ عَلَى اللَّهِ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقوله جلّ شأنه: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف: ١٠٩].

جاءت الآيتان الأوتان بالفعل المضارع، وانفردت آية يوسف بالفعل الماضي.

والسرّ البلاغيّ في هذا الاختلاف يظهر جليّاً بالرجوع إلى السياق الذي وردت فيه كلّ آية، فالآية الواردة في سورة يوسف قد سبقها الحديث عن حال الأمم السابقة المهالكة في أزمنة أنبيائها، ودعوة المخاطبين من أمّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى الاعتبار بالنظر إلى منازلهم، وهي خاوية على عروشها ليعلموا أنّ الدار الآخرة خير لمن اتقى من هؤلاء الأمم السابقة، ومن المخاطبين أنفسهم⁽⁴⁾، فناسب مجيء الماضي في هذا الموضع أوضح مناسبة⁽⁵⁾.

أمّا سورة الأنعام فإنّها خطاب للمشرّكين من قريش لإقامة الحجّة عليهم وإفحامهم وإقناعهم كي يهتدوا وهم لما يهتدوا بعد، فبيّن لهم أنّ الدار الآخرة خير من متاع الدّنيا وزخرفها لمن يتقي منهم، ترغيباً لهم فيما عند الله تعالى.

وكذلك ما جاء في سورة الأعراف؛ فهي ترهيب لليهود الذين هم في عصر النبي صلى الله عليه وسلم من كتمانهم للحق الذي جحدوا به واستيقنته أنفسهم ظلما وعلوًا، وترغيب لهم فيما عند الله جلّ وعلا إذا آمنوا واتقوا واتبعوا النبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم، والترغيب والترهيب لا يتعلّقان إلا بما يستقبل من الأمور. فناسب ذلك إيراد المضارع، فقال: ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٣٢) [الأنعام: ٣٢] (6).

...

2- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١١٧) [الأنعام: ١١٧].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥) [النحل: ١٢٥].

وقوله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن أَهْتَدَى﴾ (٣٠) [النجم: ٣٠].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٧) [القلم: ٧].

ورد في سورة الأنعام لفظ الضلال بصيغة المضارع "يضلّ" وفي المواضع الأخرى بصيغة الماضي "ضلّ". وهذا بما يتناسب مع سياق كل سورة، ذلك أنّ آية الأنعام سبقت بقوله تعالى ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ هُمُ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (١١٣)، فجاءت الأفعال كلّها في الزمن المستقبل: "تطع"، "يضلوك"، "يتبعون"، "يخرصون"، ومعناه أنّ الله تبارك وتعالى يحذر نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم أن ينقاد لأهواء الكفار والمشركين فيضلّونه ويغوونه، وقد حاولوا ومازالوا يحاولون غوايتك وصدك عن الهداية والحق؛ إذ ذاك ديدنهم وغايتهم، قال الله سبحانه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا﴾ (٧٣) [الإسراء: ٧٣].

ثم أعقب جلّ جلاله ذلك بقوله: ﴿وَإِنْ كَثِيرٌ كَلِمًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (١١٩) [الأنعام: ١١٩]، فبيّن سبحانه وتعالى أنّ كثيراً ممن يضلّون عن الصراط المستقيم والهدي القويم والنور المبين، إنّما سبب ذلك يكون باتباعهم للهوى المنافي للحق والرشاد: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (المؤمنون: ٧١).

وبين الآيتين جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ﴾ [الأنعام: ١١٧]، منسجماً في سياق اكتنفته دقة اللفظ وشرف المعنى وبراعة النظم وجودة السبك وجمال النسق وقوة العبارة، فسبحانك ربّي ما أعظم كلامك! أمّا ما جاء في سورة: النحل والنجم والقلم، فهي إخبار عمّن سبق منه الضلال، فأية النحل سبقت بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٢٤) [النحل: ١٢٤]، وهؤلاء هم بنو إسرائيل فقد سبق ضلالهم، والله أعلم بحالهم ومعادهم.

أما آية النجم فبنيت على مطلع السورة، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ (٢)، فحين اتهم الكفار نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بالجنون والسحر والكذب والافتراء - وهذا في أول دعوته صلوات ربي وسلامه عليه - ردّ ربنا سبحانه ذلك عليهم وزكاه بما هو أهله فقال عز وجل في سورة النجم: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ، ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) ﴾ ، ﴿ مَا رَأَىٰ رِزْقَ الْبَصَرِ وَمَا طَعَىٰ (١٧) ﴾ ، وقال سبحانه أيضاً في سورة القلم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ ، ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) ﴾ ، فجمع الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم كل نعوت الجمال والكمال فزكى منهجه وكلامه ومنطقه وعلمه وفؤاده وبصره وخلقه، وبزأه مما نسبوه إليه، وأثبت ذلك لهم بكناية وتعريض أشدّ وقعا في نفوسهم من الإفصاح بتعيينهم، حين قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾ [النحل: ١٢٥] (٧).

...

3- قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الفرقان: ٤٨].

إنّ السرّ البلاغيّ من إيراد الفعل في المستقبل في آية الأعراف، وإيراده في الماضي في آية الفرقان، هو أنّ آية الأعراف قد سبقت بقوله تعالى: ﴿ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٦) [الأعراف: ٥٥ - ٥٦]، وهذه الآية تضمّنت أفعالا دلالتها على الحاضر أو المستقبل، فأمر عباده بالدعاء والتضرع إليه مع استصحاب الخوف، وحذّره من مخالفة أمره، ورغبهم ورجاهم بقرب رحمته ممّن أصلح وأحسن، فناسب ذلك إيراد المضارع حتّى ينتظم آخر الكلام بأوله في انسجام وتناسق تامين متكاملين.

ثمّ إنّ الفعل المضارع من دلالاته اللغوية التجدد والتكرّر (٨) والحدوث والاستمرارية فهو المنعم سبحانه وتعالى، ولا يزال كذلك ممّا تعوّده وألفناه منه سبحانه جلّ في علاه، وعلمناه مشاهدة (٩) وحسّاً وعقلاً.

أما آية الفرقان فقد تقدّمتها قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) ﴾ [الفرقان: ٤٥ - ٤٧]، فجاءت أفعالها كلّها مقيدة بالزمن الماضي؛ وفي هذا النسق العجيب حكمة جليّة؛ ذلك أنّ هذا المقطع قد سبق بذكر مقالات المشركين، وجداهم بغير حقّ للنبيّ صلى الله عليه وسلم، في صراع بين الحق والباطل مستمرّ. فجاءت هذه الآيات بموضوعها وتعبيرها ومشاهدها وظلالها وإيقاعها لمسة من حنان، ونسمة من رحمة، وطائف من ودّ، ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع، وتسكب البرد والطمأنينة واليقين على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي ضاق صدره ممّا لاقاه من أذية قومه له، وتسريّه (١٠) وتسليّه ببدء جولة في مشاهد

الكون ومجاليه، يتوجه إليها قلب رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم ويصل بها مشاعره؛ وهذا الاتصال كافٍ وحده ليدفع خاطره عن مضايقات المشركين الصغيرة، ويفتح قلبه على تلك الآفاق الوسيعة التي يتضاءل معها كيد الكائدين، وعداوة المجرمين.

وفي هذا الدرس الإلهي الباهر ينتقل السياق من مشهد الظلّ اللطيف، ويد الله تمّده ثمّ تقبضه في يسرٍ ولطفٍ؛ إلى مشهد الليل وما فيه من نوم وسبات، والنهار وما فيه من حركة وانبعاث⁽¹¹⁾.

ومجيء هذه الآيات بالتعبير عن الفعل بالزمن الماضي يتلاءم وينسجم مع دلالة مستهلّ الآيات؛ إذ ابتدأت بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، فجاءت بجملة الاستفهام المتبوعة بحرف النفي، التي تفيد التقرير بشيء قد حدث ومضى وقوعه⁽¹²⁾ وإن كان مستمرّاً، أي: قد رأيت؛ فكان المعنى: أطلق نظرك يا محمد في آيات الله المبثوثة في الآفاق، فأنت شاهدتها وتشاهدها في كلّ وقت وحين، فلا تحزن، فربك يدافع عنك ويؤيدك وينصرك؛ لذلك ختمت الآيات بقوله جلّ جلاله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ فكان لزاماً أن تأتي آية الفرقان بالتعبير عن الفعل بالزمن الماضي توافقاً مع السابق واللاحق ضمن السياق اللفظي والمعنوي للنص القرآني، والله أعلم!

...

4- قوله تعالى في قصتي: نوح: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِي رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١٣) وهود: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِي رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾^(١٤). [الأعراف: ٦٢، ٦٨].

وقوله تعالى في قصتي: صالح: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَاتِ﴾^(١٥) وشعيب: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾^(١٦). [الأعراف: ٧٩، ٩٣].

اختصّت قصّتا نوح وهود عليهما السلام بلفظ المستقبل "أبلغكم"، وذلك لأنّ الإبلاغ كان في بداية⁽¹³⁾ بعثتهما عليهما السلام، فجيء بالمضارع الدالّ على التكرّر والتجدّد والاستمرار، كناية على أنّهما سيواصلان إبلاغ ما أرسلوا به من عند الله حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

أمّا قصّتا صالح وشعيب فاختصّتا بلفظ الماضي "لقد أبلغتكم"، وذلك لأنّ كلامهما عليهما السلام كان في آخر دعوتهما، بعد أن حُقّق العذاب على قوميهما، ولهذا افتتحت الآيتان بقوله تعالى ﴿فَنُوحِيَ عَنْهُمَا﴾، فدلّ على أنّ الإبلاغ كان في الماضي وانتهى، بعد أن حقّت عليهم كلمة الله، وحلّ بدارهم غضب الله وسخطه.

2- الاختلاف في أوزان الفعل الماضي:

للفعل الماضي صيغ وأوزان عدّة، يرد بها في كلام العرب، وقد جاء في القرآن الكريم بعض منها، من ذلك صيغة "افتعل" من "فعل" مثل: "اتبع" من "تبع"، والتي تدلّ على معنى الاجتهاد والمبالغة في تحصيل أصل الفعل⁽¹⁴⁾، وقد جاءت في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا نِينَكَكُمْ مَنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلُ وَلَا يَشْقَى﴾^(١٧) [طه: ١٢٣]،

وأصلها في قوله سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

كما وردت صيغة "فَعَلَّ" و"أَفْعَلَّ" من "فَعَلَ" مثل: "نَزَلَ"، و"أَنْزَلَ"، من "نَزَلَ"، نقول: نزل، دخل، خرج، جلس. فإذا أخبرنا أنّ غيره صيّرهُ إلى شيء من هذا، قلنا: أنزله، وأدخله، وأخرجه، وأجلسه. فأكثر ما يكون على "فَعَلَ"، إذا أردنا أنّ غيره أدخله في ذلك، يبنى الفعل منه على "أَفْعَلْتُ" (15).

كما تدخل "فَعَّلْتُ" على "أَفْعَلْتُ" إذا أردت تكثير العمل والمبالغة فيه؛ تقول: أغلقت الباب، وأغلقت الأبواب، وغلّقت الأبواب فقط، ولا نقول: غلّقت الباب، لعدم تصوّر معنى التكثير في مثله (16).

وقد تدخل "فَعَّلْتُ" على "فَعَلْتُ" لا يشركه في ذلك "أَفْعَلْتُ"، تقول: "كسرتها" و"قطعتها"، فإذا أردت كثرة

العمل قلت: "كسّرتها" و"قطّعتها" و"مزّقته"... و"جرّحته"، أي: أكثرت الجراحات في جسده (17)، ومنه قوله تعالى: ﴿

نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢].

وسنجدل ما ورد في كتاب الله تعالى من هذه الصيغ والأوزان، التي تبقى هذه المعاني العامة المقررة أصيلة ثابتة فيها، بالإضافة إلى معان أخرى يتمّ تحصيلها من سياق الآيات، ضمن الإطار العام للنصّ القرآني المجيد، من ذلك:

...

1- قوله تعالى: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ

فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

فورد الفعل الماضي الدال على الاتباع في الآية الأولى على وزن "فَعَلَ": "تَبَعَ"، أمّا في الآية الثانية فجاء على وزن "افْتَعَلَ": "اتَّبَعَ".

وكشف اللثام عن سرّ هذا التنوع الدقيق في اختيار الألفاظ في القرآن العظيم يستدعي تحليلاً من زوايا عدّة. فباعتبار الأصلية والفرعية (18) فإنّ الوزن "فَعَلَ" هو الأصل، أمّا "افْتَعَلَ" فهو فرع عنه، لذلك كان لزاماً أن يتقدّم الأصل على الفرع في الكلام فجاء لفظ "تَبَعَ" في موقعه المطابق لمعناه مقدّماً في أوّل الكتاب على لفظ "اتَّبَعَ" الذي جاء متأخراً في موقعه في ثنايا الكتاب بما يناسب معناه الذي يفيد متابعة الأصل والتأخّر عنه.

وبالنظر إلى السياق اللفظي للآيات، فإنّ ما ورد في سورة طه جاء مسبوقاً بقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ

الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٨]؛ بنفس الوزن والصيغة، فكان من اللائق أن يتوافق (19) اللاحق مع السابق؛ مراعاةً

لمقام الآيات وانتظام سياقها اللفظي والمعنوي في النظم القرآني بما يوافق غايته من الإقناع والإمتاع.

وإذا أنعمنا النظر في مقام الآيتين مرة أخرى، فإننا نجد آية طه قد سبقها بيان تفصيلي لغواية إبليس لآدم عليه السلام، وانحرافه عن الهداية والإيمان، إلى الغواية والعصيان، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (١٢١) بعد قوله: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (١١٥) وكأن المعصية أصبحت مألوفة لدى النفس الإنسانية، مجبولة عليها، قال الله جلّ جلاله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]؛ وإنقاذها من أحوال الضلال والغواية؛ ومستنقعات الفساد والعماية؛ وإقلاعها عما ألفتها واعتادته، من الانحراف والإسراف؛ وإرجاعها وانتشالها، والأخذ بيديها إلى رياض الإيمان والهداية، وحياض الرّشاد والإنابة؛ يحتاج إلى عزيمة وتحمل وعناء ومصابرة ومجادلة ومعالجة⁽²⁰⁾، وترويض وتمحيص وتعبيد وتحديد، فناسب ذلك في الآية الإتيان بالفعل "اتَّبَعَ" على وزن "افْتَعَلَ" الذي يُشْعِرُ بتجديد الفعل⁽²¹⁾، وكأن الآية الكريمة توحى إلينا من طَرْفٍ خفيٍّ أن: جَدِّدُوا إيمانكم وجَدِّدُوا إخلاصكم، وجَدِّدُوا نياتكم، وجَدِّدُوا صلتكم بالله وثقتكم به، واستسلامكم له، وانقيادكم لتعاليمه، كلما أحسستم بنزغ من الشيطان في نفوسكم، وبضعف فيها أمام مقاومة أهوائكم.

أما في سورة البقرة فلم تتطرق الآيات إلى ما كان من غواية إبليس لآدم عليه السلام، سوى إشارة عابرة في قوله تعالى: ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]، بما يوحي أنّ آدم عليه السلام على أصل خلقته وفطرته الإيمانية، ولم تكن مجرد زَلَّةٍ لتؤثّر في أصلاته، وصفاء روحه، ونقاء سيرته، وطهارة جوهره ومعدنه، فناسب ذلك إيراد الفعل على صيغته الطبيعية ووزنه الأصلي "تبع" على وزن "فَعَلَ" الذي يُشْعِرُ بالثبات على ما كان عليه وعدم مخالفته.⁽²²⁾

وأمام هذا الفيض الإيماني يخرس لساني ويعجز عن كلّ كلام سوى: اللهم لك الحمد على نعمة الإسلام.

...

2- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩].

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٤١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [إبراهيم: ٦].

والكلام عن الآيات يدور حول الفرق بين ما جاء في آية البقرة من قوله تعالى: ﴿نَجَّيْنَاكَ﴾ من الفعل "نَجَّى" على وزن "فَعَّلَ"، وما جاء في الآيتين الأخريين، من الأعراف وإبراهيم من قوله تعالى: ﴿أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ من الفعل "أنجى" على وزن "أَفْعَلَ".

ورفع الستار عن لطائف الفرق بين الصيغتين يتأتى دوماً بالرجوع إلى السياق القرآني المتضمن للآيات محلّ الدراسة: فآية البقرة سبقها تذكير للبشر جميعاً - وبنو إسرائيل منهم - بنعم الله وآلائه عليهم؛ فلقد كرمهم وأوجدتهم من عدم، وعاملهم برحمته وفضله ومنه وأغدق عليهم بأرزاقه وعطاياه سبحانه، كما تصدّرت سرداً لنعم الله وآلائه وعطاياه ومنائحه الجليلة الجمّة التي أفاضها على بني إسرائيل خاصّة وأغدقها عليهم.

وفي خضمّ هذه البجوحة من النعم المتوالية على بني إسرائيل دون غيرهم، لا يزالون في إصرارهم على الكفر، وغيرهم وعنادهم وجحودهم واستكبارهم، فكان من المناسب للآية أن تأتي بالفعل في صيغة التضعيف التي تفيد الكثرة⁽²³⁾ كما جاء بذلك البيان فيما سبق⁽²⁴⁾.

أما الآيتان الأخريان فلم يرد فيهما ما يستدعي الإتيان بصيغة التكرير والمبالغة، حتّى إنّهُ تمّ التصريح بذلك في آية إبراهيم في قوله تعالى: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]، فذكر نعمة واحدة فقط؛ وهي التي يوليها بنو إسرائيل كبير اهتمام؛ ذلك أنّ إنقاذهم من موت محقق، وهلاك عامّ، يأتي على الأخضر واليابس، وإبدال ذلك كلّه بعيش رغيد وحياة آمنة، أعظم ما يؤمله ويتمناه بنو إسرائيل - بل ويبدلون كلّ غال ونفيس، من أجل البقاء على قيد الحياة، وإن كانت ذليلة - وغضّ الطرف عن النعم الأخرى من غير تجاهل لها؛ بل لأنّ السياق الحالي والمقامي لا يقتضي ذكرها هنا؛ لذلك جاء التعبير عن الفعل الماضي بصيغة: "أنجي" على وزن "أفعل".

هذا بالنظر إلى السياق المعنوي للآيات القرآنية الحكيمة؛ أمّا بالنظر إلى السياق اللفظي لآيات الكتاب العزيز، فقد ورد التعبير بنفس الفعل الذي يفيد الإنجاء على الصيغتين السابقتين في موضعين آخرين من القرآن، وهما قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣]. وقوله سبحانه: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨]؛ ذلك أنّ ما ورد في سورة النمل، جاء موافقاً لما بعده في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾، ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾، ﴿وَأَنزَلْنَا﴾، ﴿فَأَنبَتْنَا﴾، فجاءت هذه الأفعال كلّها على وزن واحد هو: "أفعل".

في حين، إنّ ما ورد في سورة فصلت قد وافق ما قبله في قوله سبحانه: ﴿وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَدِّحٍ﴾، وما بعده في قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا﴾؛ وهي كلّها على وزن "فعل" بالتشديد⁽²⁵⁾.

...

3- قوله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

إنّ ما جاء في هذه الآية المباركة ممّا يختصّ بالفعل "نزل" على صيغتي التعدي: "فعل" بالتضعيف، و"أفعل" بالهمز، ورد في القرآن الحكيم مكرراً بصورة لافتة للنظر، موحية في الوقت ذاته بوجود فوارق جوهرية بين الصيغتين من حيث المعنى، تحول دون وقوع إحداها مكان أختها إلّا في اليسير النادر؛ ومن أمثلة ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالَّذِي نَزَّلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا اللَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وقوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رَجْسٌ وَعَصَيْبٌ أَتَجِدُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ

وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَنٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ ﴿٧١﴾ [الأعراف: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ [يوسف: ٤٠]، وقوله عز من قائل: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ [العنكبوت: ٥٠]، وقوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ [الزخرف: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴿٢٣﴾ [النجم: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ [محمد: ٩]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ [محمد: ٢٦].

وبعد إمعان فكر، وإنعام نظر في سياق الآيات الكريمة، مسترشدين ومستأنسين بآراء وأقوال علماء التفسير والبيان؛ خلصنا إلى ما يلي:

إن لفظ "نزل" على صيغة "فعل" بالتضعيف تفيد المبالغة والتكثير⁽²⁶⁾ والترديد والتكرير مرة بعد مرة والتفريق⁽²⁷⁾ والتنجيم؛ أما "أنزل" على وزن "أفعل" فهي للعموم⁽²⁸⁾؛ ولهذا جاء في آية آل عمران قوله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾﴾، فعبّر عن القرآن بالتنزيل للدلالة على أنَّ القرآن الكريم كان ينزل مفترقا آية آية، وسورة سورة، حسب الوقائع والأحداث والمناسبات، وقد تكرر هذا وتردد، وكثر في الليل والنهار، والغداة والعشي على مدى ثلاث وعشرين سنة⁽²⁹⁾؛ لتثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ومؤازرته وتأييده ومؤانسته في دعوته لقومه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ [الفرقان: ٣٢]، أما التوراة والإنجيل فقد عبّر عنهما بلفظ الإنزال، ذلك لأنَّ التوراة والإنجيل أنزلهما الله على موسى وعيسى عليهما السلام جملة واحدة، فجاء كل لفظ في مكانه اللائق به المناسب لمعناه، المطابق لدلالته، في نسق يسحر العقول والقلوب بجماله وروعته. ولا عجب فهو كلام الله العلي الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾.

والذي قيل في هذه الآية يصلح لما سيق في سورة النساء من قوله تعالى⁽³⁰⁾: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ [النساء: ١٣٦]، ولما ورد في سورة محمد صلى الله عليه وسلم في موضعين منها⁽³¹⁾.

ثم إن من معاني صيغة التضعيف ودلالاتها: الإشعار بقوة الفعل في كَيْفِيَّتِهِ وَكَمِّيَّتِهِ، وتوكيده، وعظم شأن المنزل⁽³²⁾ وهو القرآن.

وبهذا المعنى جاءت آية الأنعام المتصدرة بـ: "لولا" التحضيضية⁽³³⁾ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، فجاء الفعل مضعفاً متبوعاً بكلمة "آية" الواردة في سياق الآية مفردة نكرة للدلالة على عظم شأن الآية وقوتها، فهم يريدون أن تنزل عليهم آية تبهر العقول وتخطف الأبواب بعظمتها مما تجعلهم يؤمنون بالحق من عند الله تعالى، ثم إن هذه الآية قد تقدمها ذكر دلائل قدرة الله تعالى في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، وأعقب ذلك بتهديدهم والوعيد لهم بما ينتظرهم من الوقوف على النار، وعلى رحمهم، وما يصحب ذلك الموقف من الأهوال العظام؛ فناسب ذلك التعبير بما يوحي بقوة الفعل وتوكيده.

أما ما جاء في سورة العنكبوت من قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٥٠)، فإنه لم يرد في سياقها شيء مما ذكره في شبهتها، فكان الاكتفاء بذكر الفعل على صيغة العموم دون التضعيف، أنسب وأليق في هذا الموضع، والله أعلم.

...

4- قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧].

إن الوقوف على جماليات العبارة القرآنية، من خلال ورود لفظة "استطاعوا" بالتاء، وورودها في نفس الآية قبلها مخففة من دون تاء، لا يتأتى إلا بالنظر إلى التراكيب اللغوية التي يتألف منها سياق الآية الكريمة، والتطلع إلى المعاني المستفادة منها؛ ذلك أن الآية تعبر عن إرادة نفي قدرتهم على الظهور على السد والصعود فيه، أو نقبه وخرقه ليتسنى لهم الخروج منه؛ ولما كان نقب السد وخرقه أشد عليهم وأثقل وأعسر، والظهور عليه والصعود فيه أخف وأسهل وأيسر، جيء بالفعل تاماً مع الأثقل، ومخففاً مع الأخف⁽³⁴⁾، من باب الزيادة في المبنى تؤدي إلى الزيادة في المعنى⁽³⁵⁾.

3- الاختلاف في أوزان الفعل المضارع:

إن مما تضمنه القرآن الكريم أيضاً من الآيات المتشابهة لفظاً؛ ما كان في بعضها الفعل المضارع وارداً بصيغة، وفي الأخرى بغيرها، حسب ما يقتضيه الحال، وما يجب لكل مقام من المقال؛ من ذلك:

...

1- قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَغٌ لِلنَّاسِ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وقوله سبحانه: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذْكُرُوا بِآيَاتِهِ وَلِيَسْتَدْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾ [ص: ٢٩].

والاختلاف في الآيتين واقع في الفعل "يذكر" والفعل "يتذكر" بناءً التفعيل، والسر في ذلك راجع إلى صفات الحروف وتلاؤمها فيما بينها، فما جاء في سورة ص تقدمه قوله تعالى: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾، وهذه العبارة قد تضمنت حرفين

من الحروف الشديدة هما: الياء والdal زيادة على ذلك كون الثاني مضعفاً ممّا يقوّي شدّته، فانسجم هذا مع قوله تعالى: ﴿وَلْيَذْكُرْ﴾ المتضمّن هو الآخر حرفين شديدين هما: التّاء والكاف مع تشديد الثاني منهما.

أمّا ما جاء في سورة إبراهيم، فقد سبق بقوله: ﴿وَلْيُنْذِرُوا بِهِ﴾، وقد خلت هاتان الكلمتان من حروف الشدّة، فهي رخوة كلّها. فناسبها عطفاً عليها قوله: ﴿وَلْيَذْكُرْ﴾، إذ ليس فيها من الحروف الشديدة غير الكاف.

ثمّ إنّ اللفظين "يتذكّر ويذكّر" معناهما واحد، والأصل للأول الوارد بناء التفعيل، والثاني المخفّف فرع عنه، وهو أكثر استعمالاً وأخفّ لفظاً. فورد متقدّماً لحقّته، في آية إبراهيم، وأخر الأقلّ استعمالاً لثقله في آية ص. والله أعلم⁽³⁶⁾.

...

2- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

والفرق اللفظي في الآيتين⁽³⁷⁾ يظهر جليّاً في ورود الفعل المضارع "يَضَّرَّعُونَ" في الأنعام على الأصل مفكّكا، ومجيئه مدغمّاً مخفّفاً "يَضَّرَّعُونَ" في الأعراف.

ولعلّ السرّ في هذا الاختيار والتفنّن في الكلام؛ أنّ آية الأنعام قد أردفت بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ فجاء الفعل مفكّكاً على صيغة الماضي الذي يعتبره الكوفيون الأصل في المشتقات⁽³⁸⁾، فكان لزاماً أن يأتي المضارع تابِعاً لأصله موافقاً له، وإن كان في سياق النصّ مقدّماً عليه، مراعاةً للمناسبة اللفظيّة والمعنويّة على حدٍّ سواء؛ أمّا آية الأعراف، فلم يرد فيها شيء من هذا، فجاء الفعل بصيغة الإدغام مراعاةً للتخفيف.

...

3- قوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّتُكَ بِنَاوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨].

وقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ نَأْوِيْلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

إنّ المعنى ذاته— ذلك الذي انقشع عنه الضباب في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ﴾

نَقَبًا^(٣٩) [الكهف: ٩٧]— مستفاد من هاتين الآيتين؛ إذ أنّ موسى عليه السلام لم يسعفه عقله لتحمل ما رآه من فعل الخضر عليه السلام، فحلّت عليه غشاوة الحيرة والاندھاش والانبھار، ممّا قاده إلى سلّ سيف الإنكار والتقريع على صاحبه جزاءً أفعال، ظاهرها منكر وعدوان وظلم، اقترفها صاحبه، وهذا بسبب جهل موسى عليه السلام بغايات هذه الأفعال ومآلاتها وأسرارها، فجيء بالفعل تآمراً مستوفياً لحروفه، ليناسب حال موسى من الحيرة والانفعال.

وبعد أن كشف الخضر عليه السلام السرّ الغيبيّ من وراء أفعاله، انجلت الغشاوة عن قلب موسى عليه السلام، وحلّ عوضاً عن الحيرة أريجاً بعد العلم والمكاشفة، فناسب ذلك إيراد الفعل محقّقاً ليوافق الحفّة والأريجيّة التي أصبح يتمتّع بها كليم الله موسى عليه السلام، بعد علمه بخفايا الأفعال وأسرارها الصادرة عن متبوعه⁽³⁹⁾.

الخاتمة:

وبعد.. فقد تبين مما سبق - بما لا مجال فيه للريب - مقاصد الاختلاف الوارد في الآيات القرآنيّة؛ من حيث الصيغ والأوزان المختلفة لكل من الفعل الماضي والفعل المضارع؛ والتي كان للسياق القرآني دور بارز في تنوعها واختلافها. فكل صيغة لها دلالتها ومعانيها التي تريد أن تؤديها، ومقاصدها التي ترمي إليها من الإقناع والإمتاع والبيان. وكل ذلك تحت مظلة المقصد العام الأسمى للنص القرآني المجيد؛ ألا وهو هداية الخليقة وإخراجها من ظلمات التيه والغواية والفساد، إلى نور الهداية والإيمان والرشاد.

الهوامش:

- (1) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير الجزري، تح: كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419/1998، (1/416).
- (2) المصدر نفسه، (1/419).
- (3) المصدر السابق، (1/419).
- (4) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، تح: محمد مصطفى آيدين، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن، ط1، 1431/2010، (2/764، 765).
- (5) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، تح: سعد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1428/2007، (1/450).
- (6) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/765).
- (7) ينظر قريباً من هذا المعنى: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/510). ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/471). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، تح: عبد الجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط1، 1410/1990، ص: 165.
- (8) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/500).
- (9) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/559). وينظر في توجيه الآيتين: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، تح: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1406/1986، ص: 74. كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 176. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، تح: محمد علي الصابوني، مكتبة رحاب، الجزائر، ط2، 1408/1988، ص: 194.
- (10) تسريته: تجرّده من الهموم وتجليها عن قلبه.
- (11) ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط25، 1417/1996، (19/2568).
- (12) ينظر: بلاغة الاستفهام التقريري في القرآن الكريم - دراسة أسلوبية لمحمد مختار الشيباني، كنوز الحكمة، الجزائر، (د، ر، ط)، 1432/2011، ص: 50، وما بعدها، 111، 148، وما بعدها.
- (13) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 76. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 197.

- (14) راجع: شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين الاستراباذي النحوي (ت 686 هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)، 1402 / 1982، (1 / 110).
- (15) ينظر: الكتاب لعمر بن عثمان بن قنبر الملقب بسبيويه، تعليق: إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1420 / 1999، (4 / 167).
- (16) ينظر: أدب الكاتب لابن قتيبة، تح: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 2، 1405 / 1985، ص: 460. شرح شافية ابن الحاجب، (83 / 1).
- (17) ينظر: الكتاب لسبيويه، (4 / 175). أدب الكاتب لابن قتيبة، ص: 460.
- (18) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1 / 190).
- (19) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرمان، ص: 27. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 22.
- (20) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1 / 190، 191).
- (21) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 93.
- (22) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 93.
- (23) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1 / 198، 199).
- (24) ينظر ص: 6، 7 من هذه الدراسة.
- (25) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرمان، ص: 143. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 424.
- (26) ينظر: مع الهوامع للسيوطي، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1418 / 1998، (3 / 266). حاشية ابن المنير على الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزخشري، (الانتصاف لابن المنير)، رتبته: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1415 / 1995، (1 / 331).
- (27) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تح: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، سورية، ط 3، 1423 / 2002، ص: 799.
- (28) ينظر: المصدر نفسه، ص: 799.
- (29) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تقديم: عبد القادر الأرناؤوط، دار الفحاء، دمشق، سورية، ط 1، 1414 / 1994، (3 / 424). جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري) لمحمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1418 / 1998، (9 / 386)، (12 / 651). الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1411 / 1990، (5 / 127، 128).
- (30) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1 / 287).
- (31) الكلام في الآية الأولى عن الكفار من غير العرب، بدليل ما تقدمها في قوله: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، وكُرْهِم يشمل كل القرآن، وما تقدمه من التوراة، وغيرها من الكتب. فعبر عن ذلك بـ: "أنزل"، في حين أنَّ الكلام في الآية الثانية على المنافقين، المرتدين عن الإسلام، بدليل ما تقدمها من قوله: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [محمد: ٢٠]، وهم المنافقون. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ [محمد: ٢٥]، وهم الذين كفروا بعد إسلامهم، وكُرْهِم يشمل القرآن فقط، الذي اطلعوا عليه وأبغضوه حقيقة، فعبر عن ذلك بـ: "نزل" بالتضعيف لمواجهتهم بحقيقة ما تكن صدورهم من حقد على كلام الله المنزل منجماً. ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2 / 1022، 1023)، بتصرف.
- (32) ينظر: تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، دار سحنون، تونس، (د، ر، ت، ط)، (3 / 147، 148).
- (33) الراغب في الاستزادة، ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام، تح: إميل بدیع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1418 / 1997، (2 / 105). تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، (7 / 209). ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1 / 450).

- (34) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 790، 791).
- (35) ينظر: تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، (16/ 38).
- (36) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 720، 721).
- (37) للاستزادة ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرمان، ص: 64. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 455، 456). فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 167.
- (38) ينظر: المعجم المفصل في علم الصرف لراجي الأسمر، مراجعة: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)، 1418/1997، ص: 143. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيّين لعبد الرحمن الأتباري، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1414/1993، (1/ 235).
- (39) للتحقق من صحّة ما جنحنا إليه، يرجى الاطّلاع على: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمود الألوسي، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)، 1414/1994، (16/ 21).